الفصـل الأول

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين
أبان الحركة الصليبية
(489 ـ 690هـ/ 1095 ـ 1291م)

- أوضاع العالم الإسلامي والمسيحي قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق.
- تقدم الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، وتأسيس الإمارات الصليبية الأربع.
- موقف الخلافتين العباسية والفاطمية من الجهاد ضد الصليبيين عند بداية الحملة الصليبية الأولى.
- جهاد الرواد الأول للوحدة الإسلامية ضد الصليبيين منذ وصولهم الشام حتى نهاية الأسرة الزنكية (492 ـ 569هـ/ 1098 ـ 1174م).
- جهاد المسلمين ضد الصليبيين في العصر الأيوبي (569 ـ 648هـ/ 1174 ـ 1250م).
- الجهاد الإسلامي في عصر سلاطين المماليك حتى نهاية الحركة الصليبية (648 ـ 690هـ/ 1250 ـ 1291م).

كانت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي هدفاً للأطماع الأوروبية في مختلف العصور، لكثرة ثرواتها الطبيعية، ولموقعها الاستراتيجي الفريد. ولهذا تعرضت لمحاولات عديدة على مر العصور قام بها الأوروبيون لإخضاعها. وكانت الظاهرة الرئيسية للعدوان الأوروبي على هذه المنطقة في العصور الوسطى، هي الحروب الصليبية التي انبعثت من الغرب الأوروبي، واتخذت شكلاً هجومياً حربياً استعمارياً على بلاد المسلمين في منطقة الشرق الأدنى[1]. وكانت هذه الحروب نتيجة للأحوال السيئة التي سادت المجتمع الأوروبي الغربي في أواخر القرن الخامس الهجري (أواخر القرن الحادي عشر الميلادي) في مختلف نواحي الحياة به، كما أنها اتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق[2].

وكان المجتمع الأوروبي الغربي في هذه الفترة تسوده المنازعات والحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين مما ساعد على ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي[3] كما كان للصراعات القائمة

---

(1) عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبي، الإسكندرية، 1966، ص أ.

(2) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة، 1971، ج 1، ص 25. ولمزيد من التفصيلات حول بواعث الحركة الصليبية يرجع لنفس المرجع من ص 27 ـ 43.

(3) أرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت 1967، ص 21 ـ 24، رانسيمان: المرجع السابق، ج 1، ص 138 ـ 139، 170 ـ 171

بين رأسي العالم المسيحي الغربي حينذاك، وهما البابا والأمبراطور أثر كبير في مجريات الأحداث الأوروبية، فلقد بلغت البابوية درجة عظيمة من القوة واتساع النفوذ في هذه الفترة، مما فتح أمامها المجال لكي تصبح القوة العالمية، بمعنى أن يكون البابا هو الزعيم الروحي لجميع المسيحيين في الشرق والغرب على حد سواء[4].

بجانب الخلافات المستمرة الموجودة بين الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية، إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهة نظرها وأن تكون لها الأولوية على الأخرى. ولهذا السبب عندما عرضت فكرة الحرب المقدسة على البابا أوربان الثاني Urban II (471 ـ 491هـ/ 1078 ـ 1097م) وجد في تنفيذها فرصة كبيرة لإنهاء الخلاف بين الكنيستين والسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وادماجها في الكنيسة الغربية تحت زعامته، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين[5] هذا بالإضافة إلى أغراض أخرى عديدة كانت البابوية ترغب في تحقيقها من وراء تمسكها بفكرة الحرب المقدسة، منها التخلص من نفوذ كبار رجال الإقطاع في الغرب، وإنهاء الحروب المستمرة عن طريق توجيه هذه الطاقات واستغلالها في الحرب المقدسة، علها تفتح لهم بذلك منفذاً لحياة أفضل في الشرق بدون منازعات[6].

وإذا كان هذا هو حال الغرب الأوروبي عندما كان يعد نفسه لخروج

---

(4) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 32، فايد حماد: المرجع السابق، ص 8، رانسيمان: المرجع السابق، ج 1، ص 149.

(5) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويش، القاهرة 1961، ص 138، 142 ـ 144، أرنست باركر: المرجع السابق، ص 16، حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، القاهرة 1958، ص 27، جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، الإسكندرية 1963، ص 98 ـ 99.

(6) رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج 1، ص 138 ـ 139، عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية 1958، ص 18 ـ 19، 32 ـ 33.

الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، فلم يكن المسلمون في الشرق الأدنى في هذه الفترة الزمنية أحسن حالاً، بل كانت أحوالهم تسير من سيء إلى أسوأ مما كانوا يعانوه من الضعف والتفكك والانحلال الناجم عن سوء الحالة السياسية[7]. فبعد أن كانت الخلافة العباسية قد بلغت في القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) درجة واضحة من الشهرة والهيبة وازدياد النفوذ والقوة ومواصلة الجهاد ضد الدولة البيزنطية[8]، أصبحت تعاني من الضعف منذ عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله (218 ـ 227هـ/ 833 ـ 843هـ) وصار الخلفاء ألعوبة في أيدي الأمراء الأتراك، ودب الضعف والانحلال في جسد الخلافة، وكثرت الثورات والحركات المذهبية والدينية داخل الدولة مما أدى إلى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة نفسها[9]. واستمرت الدولة العباسية في سيرها نحو التدهور حتى أنه لم يكن للخليفة العباسي في أوائل القرن السادس الهجري (أوائل القرن الثاني عشر الميلادي) أي ظل من السلطان والنفوذ. هذا إلى جانب انصراف الخلافة العباسية حينئذ إلى محاولة التشكيك في نسب الفاطميين الشيعة وإعادة المذهب السني إلى مكانته الأولى[10].

أما الخلافة الفاطمية، فمنذ أن استولى الفاطميون على مصر سنة 358هـ/ 967م وهم يعملون جاهدين على الدعاية والترويج لمذهبهم الشيعي ويفكرون في تقويض دعائم الخلافة العباسية ومذهبها السني، ولكن بدأت عوامل

---

(7) محمد الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية 1972، ص 9.

(8) سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، القاهرة 1965، ص 14.

(9) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج 1، ص 56 ـ 57، سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دمشق 1981م، ص 26 ـ 31، عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبي، ص 48 ـ 52، حافظ حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، القاهرة 1950، ص 25 ـ 27.

(10) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، تحقيق مكي السيد جاسم، بغداد 1964، ص 221 ـ 222.

الضعف تدب في كيان الدولة الفاطمية في النصف الثاني من حكم الخليفة المستنصر بالله (427 ـ 487هـ/ 1035 ـ 1094م)، حيث جرت في أيامه شدائد وفتن، وبلغت الدولة درجة كبيرة من التدهور والانحلال، ومنيت بأزمات اقتصادية ومجاعات جعلتها غير قادرة على التماسك أمام أطماع الوزراء وتنازعهم على الحكم. وكثرت الحروب بين عناصر الجيش المختلفة، الأمر الذي ساعد على تقلص نفوذ الخلافة الفاطمية في الشام، وانسلاخ كثير من أملاكها على يد بعض من قادتها الذين نجحوا في أن يستقلوا عن جسد الدولة تماماً[11]. هذا بالإضافة إلى أن الخلافة الفاطمية كانت مشغولة في محاولاتها المتكررة لانتزاع زعامة العالم الإسلامي من الخلافة العباسية وتقويض دعائمها. ومما زاد الأمر سوءاً أن أولي الأمر في مصر كانوا لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وأهدافها، فقد أبدوا ارتياحاً كبيراً للوجود الصليبي في المنطقة منذ بداية الحركة الصليبية قبل الاستيلاء على بيت المقدس، اعتقاداً منهم أن قيام دولة صليبية في الشام سيكون حاجزاً يحول دون زحف السلاجقة إلى مصر وضمها إلى ممتلكاتهم، فسعوا إلى عقد تحالف مع الصليبيين ضد خصومهم من أهل السنة وهم الخلافة العباسية في بغداد والسلاجقة في الشام[12] بحيث يقف الفرنج عند أنطاكية ويستولي الفاطميون على بيت المقدس من السلاجقة[13]. وكان من الطبيعي أن يوافق اللاتين لأنهم سيضمنون وقوف الفاطميين على الحياد في الصراع بينهم وبين العباسيين والسلاجقة، وبذلك يتسنى لهم التفرغ لمقاومة الفاطميين بعد ذلك.

---

(11) ابن دقماق: المصدر السابق، ج 1، ص 254 ـ 256، ابن خلكان: المصدر السابق، ص 229 ـ 231، المقريزي: إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة 1971، ج 2، ص 184 ـ 333.

(12) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 9، ص 13 ـ 14، ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج 5، ص 147. انظر أيضاً:
William of Tyre: Op. Cit., t.I, pp. 223-224, 335-336, Robert Le Moines: Op. Cit., t.I, pp. 3-4.

(13) Stevenson: The Crusaders In The East, London, 1907, p. 26.

وأما القوة الثالثة، وأعني بها السلاجقة في آسيا الصغرى، فقد ظهرت على مسرح الأحداث أثناء التنازع على سيادة المسلمين بين كل من الخلافتين الفاطمية الشيعية والعباسية السنية[14]، وكانت الدولة السلجوقية في بداية عهدها تتسم بالقوة والازدهار. وبلغت أزهى عصورها أيام السلطان ملكشاه (465 ـ 485هـ/ 1072 ـ 1092م) حيث خطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال حتى آخر بلاده اليمن، وحمل إليه أباطرة بيزنطة الجزية[15]. ولكن أصبحت الدولة السلجوقية في العقد

(14) السلاجقة: قوم من الأتراك الغز، ينتسبون إلى زعيمهم الأكبر سلجوق بن تقاق، نزحوا أول الأمر من منطقة تركستان إلى بلاد ما وراء النهر حيث عاشوا فترة واختلطوا بالمسلمين واعتنقوا الإسلام وتحمسوا له كثيراً. وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة إلى إقليم بخارى على مشارف مملكة السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، واضطر السلاجقة إلى أن يدينوا بالتبعية لهذا السلطان في أول الأمر، إلا أن ازدياد قوتهم ونفوذهم أثار ريبة وخوف السلطان محمود منهم، فقبض على زعيمهم وقتله وشرد أتباعه. فاتجه السلاجقة بعد ذلك إلى خراسان واستقروا هناك، واتسعت دولتهم وسيطروا على معظم بلاد إيران وشمال العراق وأرمينية وآسيا الصغرى، بعد أن أعلنوا أنهم في طاعة الخليفة العباسي القائم بأمر الله.

انظر: الفتح البنداري: مختصر تواريخ آل سلجوق، تحقيق هوتسما، ليدن 1889، ص 6 ـ 7، الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات، القاهرة 1900 ص 2 ـ 3، سهيل زكار: المرجع السابق، ص 34 ـ 62، أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية القاهرة 1969، ج 1، ص 313 ـ 318.

(15) من المعروف أنه بعد أن حقق السلاجقة انتصاراتهم الساحقة على القوات البيزنطية في معركة منزكرت عام 463هـ/ 1071م، وقع الأمبراطور رومانوس الرابع في الأسر فترتب على ذلك توقيع معاهدة صلح بين الطرفين تعهد فيها البيزنطيون بدفع جزية سنوية إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان استمر في تحصيلها في عهد خلفه السلطان ملكشاه، وعندما تولى كان من الأمبراطورين ميخائيل السابع (1071 ـ 1079م) وأليكسيس كومنين (1081 ـ 1118م) عرش الأمبراطورية البيزنطية استمرت الجزية تدفع للسلاجقة في آسيا الصغرى للحد من غاراتهم على ممتلكات الأمبراطورية. انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 106 ـ 122، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 11، العظيمي: المصدر السابق، ص 360، اسمت غنيم: معركة منزكرت في ضوء وثائق باسيلوس، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1981، ص 227 ـ 228. منزكرت أو ملاذكرد: قلعة من أعمال خلاط ضبطها ياقوت (منازجرد) وقال: وأهله يقولون مناذكرد تقع شمال بحيرة وان في تركيا الآن. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 5، ص 202.

الأخير من أواخر القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي)، بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة 485هـ/ 1092م، تعاني من الفوضى والانقسامات بسبب المنازعات التي حدثت بين أبناء ملكشاه من أجل السلطنة. وأدى ذلك إلى تفتت ممتلكاتهم إلى وحدات سياسية صغيرة خاصة في بلاد الشام والعراق، وأطلق عليها اسم الأتابكيات[16]. ولم تحل سنة 498هـ/ 1096م حتى كانت دولة السلاجقة مقسمة إلى خمس ممالك متنافسة فيما بينها وهي: سلطنة أصبهان (فارس) وعلى رأسها السلطان بركياروق بن ملكشاه الذي كانت له السيطرة على بغداد. ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر بن ملكشاه، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتشى، ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتشى، وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان ابن سليمان بن قتلمش[17].

وخلاصة القول أن الضعف الذي انتاب منطقة الشرق الأدنى الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان له أكبر الأثر بالنسبة للغرب الأوروبي، وشجعه على الإعداد لحملة صليبية كبيرة موجهة ضد المسلمين لاستقطاع الجزء الأكبر من ممتلكاتهم وتكوين مملكة لاتينية تخدم مصالحهم، فكانت هذه الحملة هي المعروفة باسم الحملة الصليبية الأولى.

وقد تبنى البابا أوربان الثاني Urban II فكرة إخراج هذه الحملة فانتهز فرصة انعقاد مؤتمر كليرمونت الديني في فرنسا عام 488هـ/ 1095م ووجه الدعوة لجميع المسيحيين للاتحاد واستخلاص الأراضي المقدسة من أيدي

---

(16) أتابك: كلمة تركية تتألف من لفظين (أتا أو أطا) بمعنى مربي، و(بك) بمعنى أمير، وهو من ألقاب الوظائف التي استعملت في الدولة السلجوقية، وكانت وظيفة الأتابك رعاية وتربية أبناء السلاطين السلاجقة. انظر القلقشندي: المصدر السابق، ج 4، ص 18.

(17) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 114، محمد الشيخ: المرجع السابق، ص 36 ـ 37، فايد حماد: المرجع السابق، ص 68، أحمد السعيد: المرجع السابق، ج 1، ص 314 ـ 325.

المسلمين، فاستجاب الحاضرون لدعوته وتعالت صيحاتهم هكذا إرادة الرب «Deus Vul» إيذاناً ببدء الحرب الصليبية المقدسة ضد المسلمين في الشرق[18]. وقد خرجت الجيوش الصليبية من الغرب الأوروبي عام 489هـ/ 1096م قاصدة الشرق. ونجحت إلى حد كبير في تثبيت وتأسيس أربع إمارات لاتينية[19]: الأولى في أعالي الفرات وهي الرها، والثانية في أعالي الشام وهي أنطاكية، والثالثة على الساحل الشامي وهي طرابلس، أما الرابعة فكانت في قلب فلسطين وهي بيت المقدس[20] إضافة إلى أربع بارونيات كبرى هي: صيدا ويافا وعسقلان والجليل، وأثنى عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، فيسريه، نابلس، بيسان، حيفا، تبنين، بانياس، كيفا، اللد، وبيروت[21].

وجدير بالذكر أن هذا النجاح الذي حققه الصليبيون لم يكن نتيجة قوتهم أو كثرة عددهم أو المساعدات التي كانت تصلهم من الغرب

---

(18) Robert le Moine Op. Cit., pp. 3-5, Fulcher of Charters, Op. Cit., pp. 65-67.

(19) انظر: خارطة شكل (1).

(20) للإطلاع على تقدم الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق وتكوين هذه الإمارات الأربع انظر ما يلي:

Robert le Moine, Op. Cit., pp. 3-20, Fulcher of Charters, Op. Cit., pp. 65-93.

أعمال الفرنجة: المصدر السابق، القاهرة 1958م، ص 18 ـ 20، راجع أيضاً عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص 33 وما بعدها، رانسيمان: المرجع السابق، ج 1، ص 165 ـ 412، حامد غنيم أبو سعيد: الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة 1984، ج 1، ص 173 ـ 208.

(21) انظر:

Livre de Jean d'Ibelin, CF. Assisses de Jerusalem, Paris 1941, t. I, p. 414. also: Archer: The Crusades, U.S.A. 1894, p. 116, La Mense la Syrie, Beyrouth, 1924, p. 20.

انظر أيضاً: أسامة زيد، صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، الإسكندرية 1980، ص 99.

الأوروبي، وإنما يرجع إلى تفرق كلمة المسلمين وقتها لأن القوات الصليبية عندما تقدمت إلى الشرق لم تصادف قوات إسلامية متحدة وإنما صادفت قوى متنازعة[22]. هذا هو وضع كل من الشرق الأدنى الإسلامي والغرب الأوروبي في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يستعدون للانقضاض على الدول الإسلامية في المنطقة. وإذا كانت كل من الخلافتين العباسية والفاطمية لم تسارع منذ البداية إلى القيام بدور فعال للدفاع عن مدن الشام والجزيرة وهي تنهار الواحدة تلو الأخرى أمام هجمات الصليبيين بسبب ضعفها، فلا يعني ذلك استكانتهما تماماً وإنما كان لكل منهما دور ضئيل في حركة الجهاد ضد الصليبيين بما يتفق مع ظروفها وإمكانياتها، ويظهر ذلك بصورة جلية عندما استنجد المسلمون بالخلافة العباسية سنة 491هـ/ 1097م بعد سقوط أنطاكية بيد الصليبيين، فلم يكن بوسع الخليفة العباسي المستظهر بالله (487 ـ 512هـ/ 1094 ـ 1118م) أن يفعل شيئاً سوى أنه أرسل إلى السلطان السلجوقي بركيارق مستنفراً على الفرنج ومبالغاً في تعظيم الأمر وتداركه قبل أن يزداد قوة[23]. كذلك الحال عندما توجه المسلمون المستنفرون إلى بغداد بعد سقوط بيت المقدس سنة 493هـ/ 1099م يشرحون للخليفة العباسي الحالة التي أصبحت عليها البلاد ويطالبونه بالعمل الجدي للتصدي للصليبيين، ولكنه يقف للمرة الثانية عاجزاً لا حول له ولا قوة، وكل ما فعله أنه أرسل وفداً من رجال بغداد الموثوق في ورعهم وتقواهم إلى السلطان السلجوقي بركيارق يستصرخه لأنجاد المسلمين بالشام ولكن الرجال عادوا دون تلبية لمطلبهم، مما مكن الصليبيين من البلاد[24]. وكذلك الأمر عندما اشتد حصار الصليبيين لطرابلس سنة 502هـ/ 1108م فاضطر حاكمها فخر

(22) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص 9.

(23) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 17، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 161.

(24) العظيمي: المصدر السابق، ص 373، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 137، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 20، العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، القاهرة 1283هـ، ج 1، ص 272.

الدين ابن عمار للخروج إلى بغداد مستنجداً بالخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ليحولا بين الصليبيين وطرابلس، ولكنه قضى في بغداد أربعة أشهر لم يحصل منهما على غرضه مما عجل بسقوط طرابلس في أيدي الصليبيين[25].

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الموقف السلبي الذي كانت تسلكه الخلافة العباسية طوال هجمات الصليبيين على البلاد إنما يرجع إلى سيطرة وضغط السلاجقة على الخلفاء تارة، ومهاجمتهم لبغداد في بعض الأحيان تارة أخرى[26]، ولمنعهم الخلفاء من الاحتفاظ بأي قوة عسكرية أو قيادة الجيوش تارة ثالثة. هذا فضلاً عن انشغال الخلفاء العباسيين بالأمور الداخلية واستتباب الأمن في بغداد ومواجهة الخارجين عن الخلافة[27] ولهذا كانت الخلافة العباسية بعيدة عن نطاق القوى الإسلامية المتواجدة في المشرق في ذلك الوقت لمواجهة الصليبيين وجهادهم.

وأما الخلافة الفاطمية، فإذا كان أولو الأمر بها قد أبدوا ارتياحاً للوجود الصليبي في المنطقة منذ بداية الحركة الصليبية، كما أوضحنا من قبل[28]، فالأمر قد اختلف بعد أن ازدادت أطماع الصليبيين وسيطروا على منطقة يعتبرها المسلمون ضمن أقدس البقاع الإسلامية، وهي بيت المقدس. فكان من الطبيعي أن يفيق المسلمون من كبوتهم لقمع هذه الحركة وإعادة الأمور

---

(25) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 160 ـ 161، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 120 ـ 121، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 235، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، بيروت، الطبعة الثالثة 1407هـ/ 1987م، ج 12، ص 181.

(26) العظيمي: المصدر السابق، ص 398، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 215 ـ 216، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 237 ـ 239، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 195 ـ 160.

(27) العظيمي: المصدر السابق، ص 389، 391، 396، ابن الأثير: المصدر السابق ج 9، ص 193 ـ 194، 213 ـ 215، 232 ـ 233.

(28) انظر ما سبق في ص 79، 80، 81، من هذا البحث.

إلى مجراها الطبيعي، فوقعت المسؤولية على عاتق وزير مصر الفاطمي الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي[29]، فأخرج من مصر ثلاث حملات حربية فيما بين عامي 495 و499هـ/ 1101 ـ 1105م موجهة ضد القوات الصليبية الموجودة في فلسطين ليثبت الصليبيين مدى يقظة المسلمين وغيرتهم على كل شبر من الأراضي المقدسة. ورغم بعض الانتصارات التي حققتها الجيوش الإسلامية في هذه المحاولات الثلاث إلا أنها لم تتمكن من تحقيق الهدف المنشود لها وهو إعادة بيت المقدس مرة أخرى للمسلمين[30].

وكانت هذه الحملات هي آخر المحاولات الكبرى التي قامت بها الخلافة الفاطمية لاستعادة فلسطين من قبضة الصليبيين، واقتصر نشاطها الحربي ضد الصليبيين بعد ذلك على التهديد والإغارات البسيطة وتقديم المساعدات والمؤمن بواسطة الأسطول المصري للمدن الساحلية ببلاد الشام عندما كانت تتعرض لحصار الصليبيين[31].

---

(29) هو أبو القاسم شاهنشاه، الملك الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، كان أبوه أرمني الجنسية وكان من الرجال المعدودين من ذوي الآراء والشهامة والقوة، وقد استنابه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله بمدينة صور، ولما ضعفت أحوال البلاد المصرية استدعاه الخليفة عام 466هـ/ 1074م لتدبير أمور الدولة بمصر فأصلح الحال بها. ولما اشتد به المرض مهد الأمور لابنه الأفضل لتوليته أمر الوزارة من بعده، وكان الأفضل حسن التدبير وهو الذي نصر المستعلي على أخيه نزار وأقامه على حكم مصر خلفاً لأبيه المستنصر بالله، وفي نفس الوقت له الفضل في مناصرة الآمر بأحكام الله لتوليته أمور الخلافة بعد وفاة المستعلي عام 495هـ/ 1101م. ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 110، المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الطبعة الثانية، القاهرة 1987م، ج 2، ص 12.

(30) لمزيد من التفصيل عن هذه الحملات الثلاث انظر: أسامة زيد: حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد 29، سنة 1981، ص 30 ـ 69.

وانظر أيضاً:

Albert d'Aix: Historia Hierosolimitana, CF R.H.C - H OCC Paris, 1849, t. IV, pp. 549-622, Fulcher of Chartres Op. Cit., pp. 163-187.

(31) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 2، ص 306، 322، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 148 ـ 149، انظر أيضاً:

Stevenson: Op. Cit., pp. 49-50.

وقد انبعثت حركات الجهاد الفعلية ضد الصليبيين لأول مرة في بلاد الشرق الأدنى الإسلامي من منطقة الجزيرة[32]، وقد تمثل ذلك في المحاولة الفاشلة التي قادها الأمير كربوغا[33] ـ أتابك الموصل ـ ضد الصليبيين لإنقاذ أنطاكية سنة 491هـ/ 1098م[34]. ورغم ذلك لم ينتابهم اليأس في مواصلة الجهاد. فمثلاً عندما هاجم الصليبيون حران[35] عام 497هـ/ 1104م أدرك المسلمون خطورة هذا العمل، لأن حران تقع على الطريق الموصل إلى بغداد، وإذا استولى الصليبيون عليها فسوف يقطعون بذلك الطريق الموصل بين المسلمين في العراق وفارس من ناحية وإخوانهم في الشام من ناحية أخرى. وفي الوقت نفسه سيمكنهم ذلك من مواصلة الهجوم على الموصل وتأمين إماراتهم الصليبية في الرها والسيطرة على كل إقليم الجزيرة. ولذلك تصدى لهم كل من سقمان بن أرتق صاحب ماردين[36] وجكرمكش أتابك الموصل، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين أسفرت عن انتصار المسلمين

(32) حسن حبشي: نور الدين محمود والصليبيون، بغداد 1948، ص 11.

(33) كربوغا هو أحد قادة السلطان ملكشاه السلجوقي، تولى حكم حران ونصيبين والموصل (489هـ/ 1096م)، انظر: العظيمي: المصدر السابق، ص 370، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 126 ـ 127، ابن أبي الدم الحموي: التاريخ المظفري، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية ميكروفيلم رقم 966 تاريخ، لوحة 156.

(34) لمزيد من التفصيلات عن هذه المعركة انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 134 ـ 136، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 14 ـ 15، ابن العديم المصدر السابق، ج 2، ص 136 ـ 137. ومن المصادر الأجنبية راجع:
Roaul Le Caen, Op. Cit., pp. 514-516 Fulcher of Charters, Op. Cit., pp. 98-100, Robert Le Moine, Op. Cit., pp. 11-14,
أعمال الفرنجة: المصدر السابق، ص 86 ـ 95.

(35) حران: مدينة عظيمة مشهورة وهي قصبة ديار مضر وتقع على طريق الموصل والشام والروم. تقع بإقليم الجزيرة في شمال العراق. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 235، أحمد عطية الله: القاموس الإسلامي، القاهرة 1963م، المجلد الثاني، ص 60.

(36) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة وقدامها ربض عظيم وفضاء واسع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت 1986م، ج 5، ص 39.

ووقوع كبار قادة الجيش الصليبي في الأسر[37].

ولما استقر الأمر إلى شرف الدولة مودود[38] في حكم الموصل عام 501هـ/ 1107م، تأهب للجهاد ضد الصليبيين، وشن ثلاث هجمات كبرى ضدهم على الرها وبلاد الشام في الفترة الممتدة من 503 حتى 507هـ/ 1109 ـ 1113م أسفرت في جملتها عن انتصار المسلمين وتكبيد العدو الصليبي خسائر فادحة في الأموال والأرواح. فكان الهجوم الأول عام 503هـ/ 1109م انضم إليه مودود بقواته مع عساكر دمشق تحت قيادة حاكمها ظهير الدين طغتكين[39] وفرضوا حصاراً شديداً حول الرها. ولكن حشود الفرنج الصليبية أسرعت من بلاد الشام لنجدة صاحب الرها، فتراجع مودود وخلفائه إلى

(37) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 143، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 74، العظيمي: المصدر السابق، ص 375 ـ 376، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 148، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 227، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج1، ص 403 ـ 405. انظر أيضاً:

Albert d'Aix, Op. Cit., p. 76, Raoul le Caen, Op. Cit., p. 524.

(38) هو شرف الدولة مودود التونتكين، ولاه السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل سنة 501هـ/ 1107م، وقد عرف عنه تحليه بالصفات الإسلامية من زهد وتقوى وصدق في جهاد الأعداء الصليبيين. قتل على أيدي الباطنية في الجامع الأموي، وكان استشهاده خسارة كبيرة لقضية الجهاد الإسلامي، فقد كان من أولئك المجاهدين الذين أدركوا أهمية اتحاد قوى المسلمين لدحر أعدائهم. انظر: العظيمي: المصدر السابق، ص 378، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 187 ـ 188، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 150، ابن أيبك الدواداري: المصدر السابق، ص 476، أسامة زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية، 1980، ص 191.

(39) هو الأمير أبو منصور طغتكين، كان من رجال تتش تزوج بأم ابنه دقاق بعد وفاة تتش وكان مع تاج الدولة تتش لما ذهب إلى الري لقتال ابن أخيه بركياروق ورجع إلى دمشق بعد قتل تاج الدولة وكان أتابك دقاق مدة ولايته وكان شهماً مهيباً يؤثر عمارة بلاده شديداً على المفسدين والفرنج، فامتدت أيامه إلى أن توفي سنة 522هـ بدمشق ودفن عند المسجد قبل المصلى. انظر الصفدي: تحفة ذوي الألباب في من حكم دمشق من الخلفاء والأمراء والنواب مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 2144 (تاريخ طلعت) ميكروفيلم رقم 13028، ج 3، لوحة 137، سهيل زكار: المرجع السابق، ص 408.

حران على سبيل الخديعة والمكر[40] أملاً في استدراج الصليبيين وراءهم ليتمكن منهم. ولكن الصليبيين لم يمكنوه من ذلك وانتهت هذه الحملة بتفرق المسلمين وعودتهم إلى بلادهم. ومع ذلك فإن هذه الغزوة أكدت عرى الصداقة بين طغتكين ومودود[41] وأظهرت مدى إمكانية الاستفادة من تحالف قوات دمشق والموصل للقيام بعمل مشترك للجهاد ضد الصليبيين. أما الهجوم الثاني الذي شنه مودود ضد الصليبيين فكان عام 505هـ/ 1111م كرد فعل للهجوم الصليبي على أعمال حلب، مما جعل الأهالي يستنجدون بالخليفة العباسي المستظهر بالله الذي أرسل بدوره إلى السلطان محمد بن ملكشاه يستنفره للقيام بعمل سريع لنجدة أهل دمشق، فأمر السلطان محمد عندئذ بتحريك الجيوش لحرب الصليبيين تحت قيادة مودود أمير الموصل وبعض حكام الأقاليم في الدولة السلجوقية. فاتجهت هذه الجيوش إلى أطراف إمارة الرها أولاً، وفتحت بعض حصون الأرمن في الجزيرة وديار ربيعة[42]، ثم اتجهوا إلى الرها ذاتها ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها فرحلوا إلى تل باشر وحاصروها لمدة خمسة وأربعين يوماً حتى أشرفوا على أخذها، ولكن جوسلين صاحبها استطاع بث الفرقة بين صفوف المسلمين

(40) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 169 ـ 170، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 154 ـ 155. انظر أيضاً:

Grousset, Histoire des Croisades, Paris 1934-1936, t.I, pp. 453-454, Stevenson, Op. Cit., p. 88.

(41) العظيمي: المصدر السابق، ص 308، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 170، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 17 ـ 18، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 456 ـ 459، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 187 ـ 191.

(42) ديار ربيعة: شرقي ديار مضر تقع بين الموصل إلى رأس عين، وتتألف من الأراضي شرقي نهر الخابور الكبير ومن الأراضي شرقي الهرماس، وهو النهر المنساب نحو الشرق إلى دجلة، كما تتألف من الأراضي على ضفتي دجلة إلى تكريت، تشمل مناطق غربي دجلة حتى نصيبين وشرقية وفيها العاصمة الموصل ورأس العين ونصيبين وجزيرة ابن عمر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 494. انظر: لي سترينج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة وتعليق فرنسيس وعواده، بغداد 1954، ص 114 ـ 115.

فغادروها إلى حلب لنجدتها، ولكن صاحبها الملك رضوان أغلق أبواب المدينة أمامهم، وقام بمحالفة تنكرد صاحب أنطاكية ضدهم لأنه اعتقد أنهم أخطر عليه من الصليبيين أنفسهم[43]. فاتجهت جيوش المسلمين بعد ذلك إلى معرة النعمان[44] للعمل على استرداد ما وقع بيد الصليبيين من أراضي المسلمين مؤخراً، وانضم إليهم طغتكين بقوات دمشق، ولكن الملك رضوان عمل على الإيقاع بين قادة المسلمين. فعاد المسلمون كل إلى بلده دون أن يحققوا الهدف الذي خرجوا من أجله، وذلك بسبب تفكك القوى الإسلامية التي طغت المصالح الشخصية لها على الصالح العام للإسلام والمسلمين[45]، ورغم ذلك فقد أصر مودود على ضرورة مواصلة جهاد الصليبيين في الشام وقطع الصلة بينهم وبين زملائهم في الرها[46]. ولهذا أسرع في سنة 507هـ/ 1113م إلى تلبية طلب طغتكين أتابك دمشق عندما استنجد به لصد هجمات الصليبيين على دمشق وصحب معه بعض القادة الأتراك وعبروا الفرات وانضموا إلى قوات طغتكين، وقامت معركة عنيفة بينهم وبين الصليبيين عند جسر الصنبرة - إلى الجنوب من طبرية - وانهزم الصليبيون هزيمة ساحقة[47].

---

(43) العظيمي: المصدر السابق، ص 381، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 173 - 175، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 155 - 159، ابن الأثير: المصدر السابق، ص 17 - 18، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 461 - 463، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 196 - 197. انظر أيضاً:

Stevenson: Op. Cit., pp. 90-91. Grousset: Op. Cit., t.I, pp. 467-468.

(44) معرة النعمان: مدينة كبيرة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 5، ص 156.

(45) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 175 - 187، ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 144، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 160 - 161، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 198 - 200.

(46) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص 223.

(47) العظيمي: المصدر السابق، ص 381 - 382، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 184 - 185، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 149، سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 546 - 547، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 319 - 320، =

وبدخول فصل الشتاء تفرقت العساكر للراحة على أن تجتمع مرة أخرى عند حلول فصل الربيع لمعاودة القتال ضد الصليبيين، وتوجه مودود عندئذ مع طغتكين إلى دمشق منتظراً وصول أوامر جديدة من السلطان محمد بن ملكشاه. ولكن القدر لم يمهل مودود حتى يكمل جهوده الكبيرة في سبيل توحيد قوى الشام والجزيرة في مواجهة الصليبيين وجهادهم، فلم يلبث أن قتل في الجامع بأيدي اثنين من فداوية الشام[48]. ولم تتوقف حركة الجهاد بعد استشهاد شرف الدولة مودود وإنما خلفه أقسنقر البرسقي[49] الذي ولاه السلطان محمد إمارة الموصل سنة 508هـ/ 1114م وأمره باستئناف الجهاد ضد الصليبيين في الجزيرة وبلاد الشام.

وقد أدرك أقسنقر في بداية الأمر ضرورة تدعيم نفوذه في شمال العراق قبل أن يستأنف الجهاد ضد الصليبيين، فاستولى على ماردين وجزيرة عمر،

= رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 205 ـ 206. انظر أيضاً:
Albert d'Aix: Op. Cit., p. 80. Grousset: Op. Cit., t.I, p. 269.

(48) كان رئيس الدعوة الإسماعيلية الملقب بشيخ الجبل يحضر الشباب من صفوة أبناء الجبال المحيطة به ممن تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين وممن تتوفر فيهم الشجاعة والقوة البدنية ويربيهم على مبادىء المخاطرة والتضحية واحتقار الحياة البشرية فضلاً عن إقناعهم بالطاعة العمياء لأوامر زعيمهم وكانوا يتعلمون مختلف اللغات واستعمال كافة أنواع الأسلحة. وأول من كون هذه الجماعة الحسن بن الصباح أول شيخ جبل لطائفة الإسماعيلية في أواخر القرن الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر الميلادي، وكانوا يسافرون أماكن بعيدة لقتل ضحاياهم. راجع:
Michaud: History of the Crusades, London, 1852, t. II, pp. 401-422. Browne: Aliterary History of persia, cambridge 1852, p. 208.

انظر كذلك أسامة زيد: المرجع السابق، ص 65 ـ 75.

(49) هو قسيم الدولة اقسنقر البرسقي، ولاه السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل سنة 508هـ/ 1114م، ثم عزله وأعاده للولاية على الموصل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة 515هـ/ 1121م، تعرض لمؤامرة دنيئة دبرها الباطنية فمات مطعوناً وهو يصلي صلاة الجمعة في 9 ذي القعدة 521هـ/ 26 نوفمبر 1126م. لمزيد من الإيضاح عنه انظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 214، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 24، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 1، ص 242 ـ 243.

ثم اتجه بعد ذلك بجيوشه ناحية أسوار الرها وفرض عليها الحصار لمدة شهرين عام 508/ 1114م دون أن يتمكن من فتحها لمتانة أسوارها وصمود أهلها. فاضطر أن يرفع الحصار عنها بعد أن قلت المؤنة بين قواته، ثم قام بتخريب وتدمير بعض الممتلكات الصليبية الأخرى التابعة للرها مثل سروج وسميساط[50] ولكن نظراً للصراعات الحربية التي قامت بين أقسنقر البرسقي من جانب وبقية أمراء الجزيرة من جانب آخر ونجم عنها هزيمته وانسحابه أمام خصومه مما هدد الجبهة الإسلامية بالتمزق والانحلال، فقد اضطر السلطان السلجوقي إلى خلع أقسنقر البرسقي من إمارة الموصل وإعفائه من تولي الجهاد ضد الصليبيين، وأسند تلك المهمة إلى برسق بن برسق[51]، ولكن الأحوال في بلاد الشام آنذاك كانت في غير صالح المسلمين لأن معظم حكامها طرحوا طاعة السلطان السلجوقي حتى اتسعت الهوة بين قوى المسلمين، فلم تكن الظروف مؤاتية لبرسق لكي يحقق انتصارات تذكر على الصليبيين فمنيت قواته بهزيمة ساحقة في ربيع الآخرة عام 510هـ/ 1115م عند دانيث[52].

---

(50) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر تقع الآن في الجمهورية التركية بالقرب من الحدود السورية وإلى الجنوب الشرقي من الرها. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 216، أحمد عطية الله: المرجع السابق، المجلد الثالث، ص 713.

سميساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم غربي الفرات تقوم اليوم موضعها قرية سميساط الكردية، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 158، أحمد عطية الله: المرجع السابق، ج 3، ص 502.

(51) أسامة بن منقذ: المصدر السابق، ص 73، ابن الأثير: المصدر السابق، ص 19 ـ 20، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 174 ـ 175.

(52) ابن منقذ: المصدر السابق، ص 75 ـ 76، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 176، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 1، ص 324 ـ 325، أرنست باركر: المرجع السابق، ص 49. انظر أيضاً:

Gautier Le Chancelier: Op. Cit., pp. 110-111.

دانيث: بلدة من أعمال حلب بينها وبين كفر طاب. راجع: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 434.

وبعد فشل هذه الحملة توقفت السلطنة السلجوقية عن الجهاد بعد أن أيقنت أن افتقار المسلمين للوحدة والتماسك يؤدي إلى هذه النتيجة الحتمية مع كل حملة. ولهذا لم يفكر السلطان محمد بن ملكشاه في أية محاولة جديدة ضد الصليبيين في بلاد الشام حتى وفاته سنة 511هـ/ 1118م.

ولكن لما خلفه على الحكم ابنه السلطان محمود اختار أقسنقر البرسقي ليكون حاكماً على الموصل للمرة الثانية مع تكليفه في نفس الوقت بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين، وعندئذ لم يلبث أقسنقر البرسقي أن تلقى نداءاً من أهالي حلب لنجدتهم من عبث الصليبيين بمدينتهم حتى استجاب لهم وخرج على رأس جيشه وفي صحبته طغتكين أتابك دمشق وصمصام الدين صاحب حمص ووصلوا جميعاً إلى حلب في ذي الحجة 518هـ/ يناير 1125م، وتسلم حلب من أهلها استعداداً للدفاع عنها. وهكذا اجتمعت حلب والموصل في قبضة حاكم مسلم واحد وهو أقسنقر البرسقي لتكونا نواة لتوحيد المسلمين في أطراف العراق والشام وبداية لسلسلة انتصارات عديدة يحرزها المسلمون ضد الصليبيين[53]. ولكن القدر لم يمهله طويلاً لمواصلة جهاده فجاء مقتله على أيدي جماعة من فداوية الشام أثناء تأديته صلاة الجمعة في المسجد الجامع بالموصل في ذي القعدة 520هـ/ نوفمبر 1126م، مما أضعف من موقف القوى الإسلامية وقوى جبهة الصليبيين[54]. ولكن إذا كان أقسنقر البرسقي قد استشهد فإن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي ربيع الآخر من عام 521هـ/ مايو 1127م عهد السلطان

(53) العظيمي: المصدر السابق، ص 395، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 212، ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 230، ابن العديم: المرجع السابق، ج 2، ص 225 ـ 230، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 6، ص 494 ـ 495، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 208، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 228.

(54) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 214، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 31، النويري: المصدر السابق، ج 25، لوحة 5.

انظر أيضاً: Stevenson: Op. Cit., p. 118.

محمود إمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي، وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين[55].

وقد بدأ عماد الدين بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين فسيطر على القلاع القريبة منه مثل جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وبلاد الخابور وحران[56]، ثم اتجه تفكيره بعد ذلك للاستيلاء على حلب، أكبر المراكز الإسلامية بشمال الشام، وواتته الفرصة عندما علم باضطراب الأحوال بها وتهديد كل من جوسلين الثاني Jocelin II صاحب الرها وبوهيمند الثاني Bohemond II صاحب أنطاكية لها[57]. فسارع عماد الدين زنكي إليها فلقيه

---

(55) حسن حبشي: المرجع السابق، ص 147.

(56) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 36 ـ 37، ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، بيروت 1971، ص 93 ـ 94، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 6، ص 502.

سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة وهي في لحف جبل عالي في وسطها نهر جاري، عامرة بالبساتين بلدة عراقية تتبع اليوم لواء الموصل تقع ما بين دجلة ورافد الخابور. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 262، أحمد عطية الله: المرجع السابق، ج 3، ص 513.

الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة وهو أحد الروافد العليا لنهر الفرات وأكثره يجري في بلاد الشام وتعتبر منابعه حداً فاصلاً بين سورية وتركيا، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 334، أحمد عطية الله: المرجع السابق، ج 2، ص 193.

جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل ولها رستاق مخصب تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال تقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة في شمال الموصل، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 138، أحمد عطية الله: المرجع السابق، ج 1، ص 608.

نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وبها بساتين كثيرة، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 5، ص 228.

(57) جوسلين الثاني Joclin II كان يتصف بالكرم والشجاعة ويلقب بالفتى صغيراً ورغم ذلك فكان منهمكاً بشكل غير عادي بالنساء والإفراط في شرب الخمر لدرجة الثمالة فضلاً عن رذائل أخرى أضرت بملكه ومهدت إلى نجاح المسلمين في استرداد إمارة =

أهلها بالبشر ودخل البلد في يوم الاثنين 13 جمادى الآخرة سنة 522هـ/ يونيو 1128م[58] واستولى عليه ورتب أموره وأقطع أعماله الجنود والأمراء، ويؤكد ابن الأثير على أهمية هذا الفتح بقوله: «ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد لكان الفرنج استولوا على الشام جميعه»[59]. ثم تطلع عماد الدين بعد ذلك إلى دمشق وما يتبعها حتى بانياس جنوباً، فاستولى على حماة وحاول الاستيلاء على حمص إلا أن وفاة السلطان السلجوقي محمود بن محمد سنة 525هـ/ 1131م وما تبعها من صراعات البيت السلجوقي جعلته ينشغل بتلك الأحداث حتى سنة 529هـ/ 1135م. ولكن جاءته الفرصة بعد ذلك تسعى إليه عندما طلب منه شمس الملوك اسماعيل بن بوري صاحب دمشق الحضور إلى دمشق وتسلم المدينة، إلا أن مقتل شمس الملوك إسماعيل قبل وصول عماد الدين زنكي جعل المهمة صعبة والأمل في تحقيقها بعيداً، خاصة بعد أن حاصر عماد الدين دمشق واستمات أهلها في الدفاع عنها تحت قيادة معين الدين أنر مملوك طغتكين مما اضطر عماد الدين زنكي العودة إلى حلب[60]، ولكنه خرج في رمضان 531هـ/ يونيو 1137م لحصار حمص واستكمال ما سبق أن بدأه في عملية وحدة الإمارات الإسلامية. ولما علم الصليبيون بذلك أتوا لنجدة حمص، فاضطر عماد الدين زنكي إلى ترك حصارها واتجه لمواجهة الصليبيين تحت

= الرها منه على يد عماد الدين زنكي عام 539هـ/ 1144م. انظر:
Du Cange, Les: Familles d'outre-Mer publiées Par, M.E.G. Rey, Paris, 1869. p. 299.

(58) العظيمي: المصدر السابق، ص 400، ابن الأثير: المصدر السابق، ص 38، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 242، أبو شامة: المصدر السابق ج 1، ص 78.

(59) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 247.

(60) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 247 ـ 248، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 278 ـ 279، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 57 ـ 58. انظر أيضاً: Grousset: Op. Cit., t. II. p. 60.

قيادة الملك فولك Foulk[61] ملك بيت المقدس (526 ـ 539هـ/ 1131 ـ 1144م) عند قلعة بعرين. ولم تلبث أن حلت الهزيمة بالصليبيين ووقع الملك فولك في الأسر وانتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين تم بموجبه اطلاق سراح الملك الصليبي وبقية الأسرى على أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار وتكون بعرين من نصيبهم، فضلاً عن تثبيت حق المسلمين في المراكز التي استولى عليها عماد الدين زنكي من قبل شرق نهر العاص دون نزاع عليها في المستقبل وهي كفر طاب ومعرة النعمان والأثارب وزردنه[62].

وعاد عماد الدين زنكي لحصار دمشق مرة أخرى في ربيع الأول سنة 534هـ/ 1140م وعرض على صاحبها جمال الدين محمد بن بوري أن يبذل إليه بلداً يقترحه ليسلم إليه دمشق فلم يجبه إلى ذلك، ثم شدد الحصار في شعبان من هذه السنة بعد موت صاحبها محمد بن بوري فجأة والذي نصب مكانه ابنه مجبر الدين آبق، وكان معين الدين آنر عندئذ مسيطراً على الأمور

---

(61) فولك Folques كان كونتا لانجو وتور وقد انتقل إليه تاج المملكة عام 525هـ/ 1130م بزواجه من مليسند Melisend ابنة الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس بعد وفاته. وفي عام 538هـ/ 1134م توفي الملك فولك متأثراً بجراحه نتيجة لوقوعه من فوق جواده أثناء خروجه لرحلة صيد. وكان ملكاً صالحاً لمملكة بيت المقدس ولكنه لم يكن قائداً كفؤاً للفرنجة في الشرق. انظر:
Du Cange, Op. Cit., p. 15-16 CF. also: Grousset, Op. Cit., t. II. p. 165.

(62) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 258 ـ 259، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 71 ـ 72. أبو الفداء: المصدر السابق، جـ 3، ص 12، أسامة زيد: كفر طاب وحصنها بين المسلمين والصليبيين، الإسكندرية 1989، ص 22. انظر أيضاً: Grousset: Op. Cit., t. II. p. 63.

كفر طاب: بلدة بين معرة النعمان ومدينة حلب، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 4، 470.

الأثارب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية وبينها وبين حلب ثلاث فراسخ. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 89.

زردنة: بليدة من نواحي حلب الغربية، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 36.

كلها بدمشق فلما رأى شدة الحصار خاف من وقوع البلد بيد عماد الدين زنكي فأرسل إلى الصليبيين يستنجدهم لدفع جيوش خصمه عن دمشق مقابل تسليمهم بانياس بعد أن يستردها من عماد الدين زنكي. وهكذا كانت سياسة حكام دمشق تمثل عقبة كؤود في سبيل إتمام الجبهة الإسلامية ببلاد الشام(63).

وقد استمر عماد الدين زنكي في جهاده ضد الصليبيين حتى توج أعماله بفتح الرها عام 539هـ/ 1144م فانتهز فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني Jocelin II عنها وتواجده في تل باشر، حيث مقامه المحبب إلى نفسه، وما ترتب على ذلك من خلو المدينة من الجنود وقلة الحامية الموجودة بها، فضلاً عن جهل الأهالي باستعمال السلاح لكونهم تجاراً وليسوا جنوداً. فقاد الجيوش الإسلامية وفرض الحصار حول المدينة في ربيع الآخر 539هـ/ نوفمبر 1144م. وبعد حصار شديد دام ثمانية وعشرين يوماً دخل المسلمون المدينة وفرضوا سيطرتهم عليها(64). ولم يعد من الصعب على عماد الدين زنكي بعد ذلك الاستيلاء على كثير من المعاقل الصليبية شرقي نهر الفرات. وكان من الممكن أن يستأنف حروبه ضد الصليبيين غربي الفرات لولا ما حدث في الموصل من محاولة لعزله عن حكمها، فأسرع إليها ليمكن نفسه منها. ولم يكد يفرغ من السيطرة على مقاليد الأمور فيها حتى علم بتآمر الأرمن في الرها وأنهم استدعوا جوسلين الثاني Jocelin II. ولذلك أسرع عماد الدين زنكي إلى الرها وقضى على المؤامرة وأعاد الهدوء

(63) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 272، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 9، ص 313، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 372، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 89. انظر أيضاً: Grousset: Op. Cit., t. II p, 132.

(64) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 279 ـ 280، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 69، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 93 ـ 94، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص 115 ـ 116، رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 379 ـ 381. انظر أيضاً: William of Tyre: Op. Cit., t. II, p. 143.

مرة أخرى إلى المدينة[65]. وبعد ذلك مضى عماد الدين زنكي على رأس جيشه لحصار قلعة جعبر ذات الموقع الاستراتيجي الهام، فهي تقوم عند أنسب نقطة لعبور الفرات من الشام إلى الجزيرة الفراتية. ولكن أثناء حصاره للقلعة قتله أحد غلمانه في السادس من ربيع الآخر عام 541هـ/ منتصف سبتمبر 1146م[66]. وهكذا انطوت صفحة هامة من صفحات جهاد المسلمين ضد الصليبيين باستشهاد عماد الدين زنكي بعد أن واصل جهود مودود وأقسنقر البرسقي، ومهد الطريق لابنه نور الدين ليتمم خطوات الوحدة الإسلامية، ويعدل من ميزان القوى ليصبح في صالح المسلمين ويكون خطوة على طريق النصر الأكبر على الفرنج فيما بعد في معركة حطين عام 583هـ/ 1187م على يد صلاح الدين الأيوبي.

وبعد استشهاد عماد الدين زنكي انقسمت دولته بين ولديه سيف الدين غازي الذي تملك الموصل، ونور الدين محمود وقد ثبتت أقدامه في حلب وخلف أبيه في حمل راية الجهاد ضد الصليبيين[67]. وفي الوقت نفسه حرص نور الدين محمود على استرضاء أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل فأظهر له الاحترام حفاظاً على وحدة الصف الإسلامي وحاول أيضاً استمالة حكام دمشق إلى جانبه وكسب ودهم حتى انتهى الأمر باتفاقية صلح بينه وبين معين الدين أنر صاحب السلطة العليا في دمشق. ولتدعيم ذلك

---

(65) حسين مؤنس: نور الدين محمود، القاهرة 1959، ص 177.

(66) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 284 ـ 285، ابن الأثير: المصدر السابق، ص 73 ـ 74، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 107 ـ 109، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 99 ـ 100. انظر أيضاً:

William of Tyre: Op. Cit., t. II, pp. 145-146.

لمزيد من التفصيلات حول جهاد عماد الدين زنكي ضد الصليبيين راجع ابن الأثير: المصدر السابق، ص 35 وما بعدها، وابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 34 وما بعدها.

(67) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 285، ابن الأثير: المصدر السابق 84 ـ 86، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 46 ـ 47.

تزوج نور الدين من ابنة أنر[68].

وكان لسقوط الرها في ذلك الوقت في أيدي المسلمين رد فعل عنيف في الغرب الأوروبي لأنها كانت أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق، فجاء سقوطها إيذاناً بانحسار الكيان الصليبي الكبير الذي نجحت الحملة الصليبية الأولى في إقامته بالشرق. ولذلك أدرك الغرب الأوروبي أنه إذا لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار[69]. ولذلك قامت الاستعدادات على أشدها لخروج حملة صليبية ثانية كان على رأسها لويس السابع ملك فرنسا Louis VII وكونراد الثالث Conrade III أمبراطور ألمانيا بقصد استرداد الرها والقضاء على قوة الزنكيين في شمال العراق والشام، وبالتالي تأمين الأوضاع الخاصة بإمارتي الرها وأنطاكية وهما الإمارتان اللتان تعرضتا أكثر من غيرهما لضربات المسلمين[70]. ولكن لما وصلت جيوش الحملة الصليبية إلى بيت المقدس في ربيع الأول عام 543هـ/ يونيو 1148م وعقد الصليبيون اجتماعاً كبيراً حضره الملكان وعدد آخر من كبار رجال الدين والأمراء الصليبيين، قرروا انحراف خط سير الحملة ومهاجمة دمشق والاستيلاء عليها ثم مواصلة الطريق بعد ذلك إلى حلب للاستيلاء عليها[71]. وبالفعل أخذت الحملة طريقها نحو دمشق واستبسل أهالي المدينة بقيادة معين الدين آنر في صدهم. وفي نفس الوقت طلب العون من نور الدين محمود أتابك حلب وأخيه سيف الدين غازي أتابك الموصل فلبيا النداء.

---

(68) حسن حبشي: المرجع السابق، ص 43.

(69) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 2، ص 606.

(70) انظر:

William of Tyre Op. Cit., t. I, p. 184, CF also King, E.J: The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, London 1931, p. 44.

(71) انظر:

William of Tyre: Op. Cit., t, I, p. 186, CF also King: Op. Cit., Loc, Cit., Richard: The Latin Kingdom of Jerusalem, New York, 1979, p. 39. Grousset, Op. Cit., II, p. 243-245.

وقد استغل معين الدين وصولهما على رأس جيشين كبيرين وأخذ يهدد الصليبيين بتسليم المدينة إلى نور الدين إن لم يرحلوا عنها مما يشكل خطراً كبيراً عليهم. وعرض عليهم أن يسلمهم بانياس مقابل الجلاء عن دمشق، وعندئذ أدرك الصليبيون سوء موقفهم وقرروا الانسحاب، وعاد كل من الملكين إلى بلاده[72]. وليس هناك من شك أن فشل الحملة الصليبية الثانية يعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية بصفة عامة وفي تاريخ مسلمي الشرق الأدنى بصفة خاصة، الأمر الذي نجم عنه نمو وتطور حركة الإفاقة الإسلامية بالشكل الذي انتهت إليه بتوحيد الجبهة الإسلامية من النيل إلى الفرات على يد نور الدين محمود وفق ما سيتضح فيما بعد.

ولقد أدرك نور الدين محمود بعد ذلك أن الأمور لن تستقيم له إلا بعد السيطرة على دمشق وضمها إلى بقية ممتلكاته في بلاد الشام، فأعد قواته وفرض الحصار عليها مما اضطر حاكمها مجير الدين آبق إلى الاستنجاد بالصليبيين، وبذل الأموال لهم مقابل صد عدوان جيش نور الدين محمود عن دمشق فكان لهذا أكبر الأثر في استمالة نور الدين لقلوب أهالي المدينة مما سهل له أمر الاستيلاء على دمشق فيما بعد ودخلها في صفر عام 549هـ/ إبريل 1154م[73]. وبذلك استطاع نور الدين محمود أن يملك العديد من الحصون التابعة لها مثل بعلبك، بصرى، صرخد وشيزر[74]. وبذلك يكون

---

(72) أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، 53، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 122، ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، بيروت 1970، ج 2، ص 75، راجع أيضاً:

King, Op. Cit., p. 48, Setton: A History of the Crusades, London 1969, t. I, p. 507, Stevenson: Op. Cit., p. 162.

(73) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 106، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 304، باركر: المرجع السابق، ص 78. انظر أيضاً:

William of Tyre: Op. Cit., t. I, pp. 224-225.

(74) ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 128 ـ 129، عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، دمشق 1962، ج 3، ص 58.

بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور بالرخام وتقع في الهضبة =

قد قضى على كل تمزق في بلاد الشام وازدادت القوة الدفاعية لدى المسلمين، وأصبح شمال الشام ووسطه تحت الحكم النوري مما سهل لهم كثرة الانتصارات على القوات الصليبية في مواقع كثيرة واسترداد كثير من حصونهم ومعاقلهم(75).

وأما سياسة نور الدين محمود تجاه أمراء الموصل فقد اضطر إلى التخلي بعض الوقت عن سياسته القائمة على التفاوض والتفاهم وآثر التدخل العسكري فيها عقب وفاة أخيه سيف الدين غازي الثاني حاكم الموصل عام 544هـ/ 1149م حتى انتهى الأمر له بالسيطرة عليها وعلى أنحاء الجزيرة الفراتية. وقد تأكد له ذلك بوصول رسل الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566 ـ 575هـ/ 1171 ـ 1179م) يحملون تقليده الموصل وبلاد الجزيرة(76).

وقد أدرك الصليبيون أن نجاح الدولة النورية في الشام في تحقيق

= المرتفعة الواقعة بين سلسلتي لبنان الغربية والشرقية. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 453. مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد جلاد، دمشق 1984م، ص 67.

بصرى: من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حران مشهورة عند العرب تقع على أطراف حران في جنوب سوريا. ياقوت الحموي: ج1، ص 440، مولر: المرجع السابق، ص 87.

صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة بلدة سورية تتبع جبل الدروز. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 401، أحمد عطية الله: المرجع السابق، المجلد الرابع، ص 265.

شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة في وسطها نهر الأردن وهي قديمة ذكرها أمرؤ القيس تقع إلى الشرق من اللاذقية وشمال حماة وما زالت أطلال حصنها قائمة حتى اليوم. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 383، أحمد عطية الله: المرجع السابق، ج 4، ص 214.

(75) لمزيد من التفصيلات حول سياسة نور الدين ضد الصليبيين في بلاد الشام راجع: سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 2، ص 647 ـ 651، 690، حسين مؤنس المرجع السابق، ص 260 وما بعدها.

(76) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 154.

الوحدة قد أغلق أمامهم الباب في التوسع في بلاد الشام، ولم يبق أمامهم سوى مصر حيث بدت غنيمة سهلة نتيجة لاختلال أوضاع البلاد الداخلية في ظل الحكم الفاطمي[77]. فبعد أن استطاع أبو الأشبال ضرغام[78] أن يطرد شاور[79] من الوزارة في مصر عام 558هـ/ 1162م، لم يلبث شاور أن لجأ إلى نور الدين محمود في الشام، وتعهد أن يدين له بالولاء والطاعة وأن يدفع له ثلث إيراد البلاد المصرية إذا ساعده في العودة إلى الوزارة مرة أخرى[80]. فوافق نور الدين وأرسل معه جيشاً كبيراً بقيادة أسد الدين شيركوه عام 558هـ/ 1163م، الذي صحب معه ابن أخيه صلاح الدين. وعندما اقترب الجيش من مصر استنجد ضرغام بالصليبيين وتعهد للملك الصليبي عموري Amoury (557 ـ 570هـ/ 1162 ـ 1174م) مقابل مساعدته أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين[81]. ولكن شيركوه وصل

---

(77) للوقوف على ضعف الجبهة الداخلية في مصر آنذاك راجع: ابن منقذ: المصدر السابق، ص 30 وما بعدها، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 5، ص 228، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة 1966، ص 124 وما بعدها، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة 1981، ص 180 وما بعدها.

(78) هو الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام ابن عامر بن سوار اللخمي، نائب الباب، خرج على شاور بجموع كثيرة وغلبه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده طيا وولى الوزارة مكانه، فاستنجد شاور بنور الدين محمود صاحب الشام فأنجده بالأمير أسد الدين شيركوه الذي وصل مع شاور إلى مصر، فلما علم ضرغام خرج من القاهرة وقتل في رجب 559هـ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 442.

(79) هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار السعدي وزير العاضد صاحب مصر تولى الوزارة عام 558هـ، انتهز شاور حالة ضعف الدولة وتمكن من التغلب على العادل بن رزيك وزير مصر في عهد الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين في مصر وسجنه ثم قتله عام 558هـ. ولكن ضرغام تمكن من طرده من الوزارة فيما بعد، الأمر الذي جعله يهرب إلى الشام ويستنجد بالسلطان نور الدين محمود صاحب الشام الذي أرسل ثلاث حملات إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي، وقتل شاور عام 564هـ، انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 439 ـ 448.

(80) عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، باريس 1897، ص 68، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 26.

(81) William of Tyre: Op. Cit., t. I, p. 304, King, Op. Cit., p. 89.

بجيشه إلى الدلتا قبل الصليبيين، وهناك قامت معركة بين قوات شيركوه وضرغام انتهت بمقتل ضرغام، وتولى شاور الوزارة مرة أخرى[82]، ولكنه لم يف بعهده لنور الدين محمود وأرسل إلى أسد الدين شيركوه يطالبه بمغادرة البلاد، بل تمادى في غيه حين طلب المساعدة من الملك الصليبي لإخراج القوات النورية من البلاد[83].

وعندئذ ابتدأت سلسلة طويلة من الصراعات العنيفة للسيطرة على مصر بين قوات نور الدين محمود من ناحية والجيش الفاطمي بقيادة الوزير شاور يسانده الجيش الصليبي من ناحية أخرى، استمرت حتى عام 564هـ/ 1168م وانتهت لصالح نور الدين محمود بسيطرته على البلاد المصرية ومقتل شاور وعندئذ لم يجد الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، آخر خلفاء الفاطميين خيراً من أسد الدين شيركوه ليوليه أمر الوزارة في مصر. غير أن شيركوه لم يعمر في الوزارة غير شهرين ثم مات فاختار الخليفة العاضد صلاح الدين وزيراً له[84]. غير أن صلاح الدين قد خيب ظن الخليفة العاضد، فقام بالتخلص من الشيعة في مصر وأنشأ المدارس السنية، ثم قام بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي وإعلانها للخليفة العباسي المستضيء بالله أول محرم 567هـ/ سبتمبر 1171م ويقال أن الخليفة كان مريضاً فلما سمع بهذا النبأ اشتد المرض

(82) عمارة اليمني: المصدر السابق، ص 77، الحنبلي: المصدر السابق، ص 26. راجع أيضاً:
Michel Le Syrien: Chronique de Michel Le syrien Traduit par Chabot, Paris 1899, p. 325.

(83) ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 466، ابن واصل: المصدر السابق، ص 140، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 131 ـ 132. انظر أيضاً: King: Op. Cit., p. 90.

(84) لمزيد من التفصيلات حول تنافس القوات النورية والصليبية للاستيلاء على مصر راجع: أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 165 وما بعدها. ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 140 وما بعدها، ابن الشحنة: روض المناظر في علم الأوائل والأواخر ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم 270، لوحة 55 ـ 56 وما بعدها. ومن المصادر الأجنبية، انظر:
William of Tyre: Op. Cit., t. I, p. 304FF. Michel Le Syrien: Op. Cit., pp. 328-334.

به وتوفى بعد عشرة أيام من ذلك التاريخ[85]. وبهذا انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر أكثر من قرنين من الزمان.

ولكن الوضع الجديد الذي أصبحت عليه مصر لم يرض غلاة الشيعة فيها فدبروا مؤامرة في القاهرة في رجب 569هـ/ مارس 1174م تزعمها عمارة اليمني بغرض إعادة الدولة الفاطمية. وقد اتفق المتآمرون مع الصليبيين في الشام وصقليه ليأتوا بأساطيلهم إلى مصر في الوقت الذي يقوم المتآمرين فيه بالثورة الداخلية. ولكن شاء الله أن يفضح أمر هؤلاء المتآمرون وتم القبض عليهم وقتلهم. أما الصليبيون الذين وصلوا إلى الاسكندرية ونزلوا ببرها فقد نجح صلاح الدين في أن ينزل بهم الهزيمة مما اضطرهم إلى الانسحاب[86].

وأصبح على نور الدين محمود أن يخوض غمار معركة شاملة ضد الصليبيين ليستعيد كل ما فقده المسلمون، ولكن المنية وافته في شوال 569هـ/ مايو 1174م. فكان ذلك مؤشراً خطيراً لبداية تفرق الصف الإسلامي، فتدهورت الأحوال الأمنية في حلب ودمشق والموصل نتيجة لأطماع الأمراء النوريين الشخصية والتنافس بينهم حول الاستبداد بالأمر بحجة الوصاية على الصبي الصغير الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود الذي خلف أبيه في الحكم وهو لم يتجاوز بعد الحادية عشرة من عمره. ولكن ما أن علم صلاح الدين الأيوبي بحقيقة الأمور حتى غادر القاهرة متجهاً إلى الشام ودخل دمشق بناء على استدعاء أهلها وحاكمها له. وقد اتخذها مركزاً يتحرك منه لمواجهة أطماع الأمراء النورية وخاصة في حلب والموصل. وقد انتهى الأمر باستيلائه على حلب ومعظم بلاد الشام، فضلاً عن كل الأقاليم المحيطة بالموصل والتابعة لها، وصدر عندئذ تقليد الخليفة العباسي له

(85) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 17، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 35، ابن واصل: المصدر السابق، ج 1، ص 168، جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، الإسكندرية 1967، ص 5 ـ 10.

(86) سبط بن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 299، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 219، ابن واصل المصدر السابق، ج 1، ص 243، ج 2، ص 16.

بالسلطنة على مصر والشام والمغرب واليمن[87].

وأما الموصل نفسها فلم يستطع صلاح الدين الأيوبي الاستيلاء عليها لشدة تحصينها، حتى اضطر أن يعقد صلحاً مع صاحبها عز الدين مسعود الذي وافق على الاعتراف بتبعيته للسلطان صلاح الدين الأيوبي وأن يخطب له على المنابر مع ضرب اسمه على السكة[88].

وهكذا تحقق على أيدي صلاح الدين الأيوبي ذلك الحلم الذي كان يسعى لتحقيقه رواد الوحدة الأول منذ أيام مودود في بداية القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) وهو توحيد البلدان الإسلامية في جبهة واحدة من النيل إلى الفرات. ولم يعد أمام صلاح الدين الأيوبي سوى التفرغ لمواجهة الصليبيين في معركة فاصلة يستعيد على أثرها كل ممتلكات المسلمين الضائعة.

وجدير بالذكر أنه على الرغم من أن صلاح الدين الأيوبي قد عانى كثيراً أثناء إخضاع بلاد الشام والجزيرة، إلا أنه كان يواصل نشاطه الحربي ضد الفرنج منتهزاً فرصة ما كانت تعاني منه المملكة اللاتينية من ضعف وانقسام خاصة بعد أن اشتد المرض على ملكها بلدوين الرابع Baldwin IV ووصل إلى حد العجز عن الحركة من فراشه. وفوض صهره جاي لوزجنيان

---

(87) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 35، أبو شامة: المصدر السابق، ج 1، ص 241 ـ 243، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 290، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 7، ص 159.
Setton: Op. Cit., t. I, p. 568 GibbonE: The Life of Saladin, London 1973, p. 14.
انظر: خارطة شكل (2).

(88) ابن شداد: المصدر السابق، ص 70، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 134 ـ 135، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 64، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 172، انظر أيضاً:
Stevenson: Op. Cit., p. 239; Setton: Op. Cit., t. I pp. 580-581. King: Op. Cit., p. 111.

Guy Losignian ليكون حاكماً فعلياً للملكة بينما يحتفظ هو بالاسم فقط[89].

وقد اشتدت هجمات صلاح الدين على أنحاء مملكة بيت المقدس بعد استيلائه على حلب سنة 579هـ/ 1183م، وكان الصليبيون يلتزمون الدفاع ويتجنبون القتال مع صلاح الدين الأيوبي لأنهم كانوا مدركين أن الاشتباك مع المسلمين في معركة ميدانية ليس في صالحهم، ولذلك عندما حاول صلاح الدين الأيوبي أن يستدرجهم في معركة فاصلة في فلسطين أصابه الفشل[90] ولم يلبث أن اتخذ قراراً حاسماً ضد الصليبيين بعد التصرفات الطائشة التي قام بها أمير الكرك رينودي شاتيون Rinaud de Chatiau المعروف لدى المؤرخين المسلمين باسم أرناط[91] بهدف قطع الطريق على القوافل بين مصر والشام والحجاز والاستيلاء على موانىء البحر الأحمر ومحاولة تخريب الأماكن المقدسة لدرجة أن الصليبيين أصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة[92] ولكن الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين الأيوبي قام بتعقب أرناط وتدمير أسطوله على سواحل البحر الأحمر وحال دون تحقيق أهدافه[93]. ولكن لم يكتف أرناط بذلك وإنما تمادى في هجومه على إحدى القوافل المتجهة من القاهرة إلى دمشق أوائل عام 582هـ/ 1187م واستولى على ما تحمله من مال ومتاع وأسر رجالها في حصن الكرك

---

(89) هو ابن Puisnede Hugues سيد لوزجنيان وقد دخل في خدمة الملك بلدوين الأبرص، وتزوج من أخته سيبلا Sibylle وبذلك أصبح لجاي أحقية تتويجه ملكاً على بيت المقدس في سبتمبر 1186م وقد وقع الملك جاي أسيرا في أيدي المسلمين عام 583هـ/ 1187م أثناء معركة حطين. لمزيد من التفصيلات انظر: Du cange: Op. Cit., p. 24.

(90) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 50، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 150 ـ 151.

(91) Ernoul: Op. Cit., pp. 54-55; Geoffry de vinsouf: Op. Cit., p. 74.

(92) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 117 ـ 118، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 79.

(93) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 124 ـ 125، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 56.

وسامهم العذاب ضارباً بالهدنة المنعقدة مع المسلمين عرض الحائط[94]. وكان ذلك الحادث مقدمة المعركة الفاصلة ضد الصليبيين وهي معركة حطين، فجمع صلاح الدين الأيوبي الجيوش المتوافدة عليه من كل مكان تحت راية واحدة وخرج على رأسها في عام 583هـ/ 1187م والتحم مع الصليبيين في معركة ضروس عند تل حطين انتهت بالقضاء على جيش المملكة اللاتينية قضاء تاماً وأسر ملكها وعدد كبير من أمرائها وقتل أرناط وعدد كبير من الأمراء الصليبيين[95].

وتعتبر موقعة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية، لأن الصليبيين لم يفيقوا مطلقاً من تلك الضربة التي أودت بزهرة فرسانهم، ولم يكن منتظراً من مملكة بيت المقدس بعد فناء جيشها وأسر ملكها أن تستطيع الصمود والمقاومة. وكان المفروض أن يتجه صلاح الدين الأيوبي بعد حطين إلى بيت المقدس ليستولي عليها لكنه آثر الاستيلاء على مدن الساحل حتى يمنع وصول أي معونة تأتي للفرنج من غرب أوروبا فيسهل عليه انتزاع المدن والقلاع الداخلية من الصليبيين[96]، فضلاً عن أن ذلك يهيء له اتصالاً بحرياً سريعاً وسهلاً بين شطري دولته في مصر والشام[97]. وبالفعل استولى صلاح الدين على هذه المدن الواحدة تلو الأخرى ثم توج أعماله باستعادة بيت المقدس في 27 رجب 585هـ/ سبتمبر

---

(94) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 75، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 185. انظر أيضاً:
Ernoul: Op. Cit., Loc. cit, CF also Grousset: Op. Cit., t. III, p. 116; Richard: Op. Cit., p. 174; King: Op. Cit., p. 118.

(95) لمزيد من التفصيلات حول معركة حطين راجع: ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 148، العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 23 وما بعدها، ابن شداد: المصدر السابق، ص 63، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 76، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 194، ابن بهادر: فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 4977 تاريخ، ميكروفيلم 63546، لوحة 55.

(96) سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 2، ص 811.

(97) Stevenson: Op. Cit., p. 249.

1187م. وقد واصل صلاح الدين بعد ذلك جهوده الحربية ضد الصليبيين على مدى ثلاث سنوات فانتزع من إمارة طرابلس معظم ممتلكاتها مثل اللاذقية وهي أكبر ميناء للإمارة وقلعة انطرسوس وحصن الأكراد. ومن إمارة أنطاكية حصن المرقب[98]. وقد ترتب على تلك الكوارث التي حلت بالصليبيين أن وصلت أصداؤها إلى أوروبا مما أثار الحماس البابوي للدعوة لحملة صليبية كبرى لاسترداد مملكة بيت المقدس من المسلمين، فاستجاب له ريتشارد قلب الأسد Richard Cœur de Lion ملك انجلترا وفيليب أغسطس Philip Augustus ملك فرنسا وفريدريك بربروسا Fredric Barbarrossa امبراطور ألمانيا، وخرجت الجيوش الثلاثة من الغرب الأوروبي ناحية الشرق تحت اسم الحملة الصليبية الثالثة[99]. ونجح الصليبيون في رجب 585هـ/ ابريل 1189م في حصار عكا براً وبحراً وتضييق الخناق عليها من كل الجهات. ورغم المساعدات التي كان صلاح الدين الأيوبي يرسلها إلى أهالي المدينة بين الحين والآخر لانقاذهم إلا أن محاولاته باءت بالفشل، وعجز عن إنقاذ المدينة حتى سقطت في أيدي الصليبيين في جمادى الآخرة

---

(98) Grousset: Op. Cit., t. II, pp. 834-835.

أنطرسوس: حصن على بحر الروم وهو ثغر لأهل حمص، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وقد حصنها معاوية، وهي ميناء بحري من العصور الوسطى ومحطة للحجيج وبها سور وخنادق وأسوار خارجية. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 270، أبو الفداء: المصدر السابق، ص 256.

أما حصن الأكراد فهو حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب ويسمى الآن قلعة الحصن، وقد سمي بهذا الاسم لأن أمراء الشام أسكنوا عساكر الأكراد به وتقع في وسط سوريا ترتفع عن سطح الأرض 2100 قدم. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 284، مولر: المرجع السابق، ص 76. وبالنسبة للمرقب فهو بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس، تقع على الساحل السوري، ويقول ياقوت أن المسلمين عمروها سنة 454هـ وليس لحصنها مثيل. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 5، ص 108، مولر: المرجع السابق، ص 71.

(99) رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 29 ـ 31.

عام 587هـ/ يوليو 1191م[100]. وكان رد الفعل لسقوط مدينة عكا أن استمر المسلمون في قتال الصليبيين العنيف بهدف استنزاف قواهم وأضعاف روحهم المعنوية مما دفع الملك ريتشارد Richard إلى طلب عقد معاهدة معهم، فجاء صلح الرملة المنعقد بين الطرفين في شعبان 588هـ/ سبتمبر 1192م لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام حداً لنهاية أحداث الحملة الصليبية الثالثة[101].

توفى صلاح الدين الأيوبي في 27 صفر عام 589هـ/ مارس 1193م وقد ترك وراءه دولة مترامية الأطراف، وفراغاً ضخماً لم يستطع أحد أن يملأه من بعده. فاتسعت شقة الخلاف بين أبناء صلاح الدين الأيوبي على السلطة وتدخل بينهم أصحاب الرأي والمشورة لإصلاح ذات البين واستقر الأمر في النهاية بأن يحتفظ أكبر أبناء صلاح الدين الأيوبي وهو الأفضل بدمشق والساحل الشامي وبيت المقدس وبعلبك، أما الابن الثاني وهو العزيز عثمان فقد احتفظ بمصر، في حين حكم الابن الثالث وهو الظاهر غازي حلب وشمال الشام. أما العادل سيف الدين أخو صلاح الدين فقد حكم الكرك والأردن بجانب الجزيرة وديار بكر على أن تكون السلطة للملك الأفضل احتراماً لوصية صلاح الدين الأيوبي قبل وفاته. ولكن لم تلبث وأن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي استغرقت وقتاً طويلاً مما نتج عنها ضعف وتفكك الدولة الأيوبية وانتهز الصليبيون هذه الفرصة واستولوا على

(100) لمزيد من التفصيلات حول حصار عكا انظر: العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 474 ـ 513، ابن شداد: المصدر السابق، ص 161، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 359 ـ 360. انظر أيضاً:

Richard of Devizes: Op. Cit., pp. 39-46; Geoffry of Vinsauf, Op. Cit., pp. 329-330; CF also: Mayer: the Crusades, London 1972, pp. 143-146.

(101) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 603، 610 ـ 627، ابن شداد: ص227 ـ 237، 249 ـ 250، مؤلف مجهول: نزهة الناظر وراحة الخاطر لوحة 16 مخطوط.

انظر أيضاً:

Richard of Devizes: Op. Cit., t. p. 56, Ernoul: Op. Cit., p. 292.

بعض ممتلكات المسلمين، ولكن الأمور عادت إلى مجراها الطبيعي مرة أخرى بعد أن نجح العادل سيف الدين في لم شمل البيت الأيوبي من جديد تحت سلطانه وإعادة توحيد الجبهة الإسلامية بقيادته. وقد أناب عنه أبناءه في حكم البلاد فتولى الكامل محمد حكم مصر، وجعل المعظم عيسى في دمشق، والأشرف موسى في إقليم الجزيرة، والأوحد في ميافارقين، بينما احتفظ بالإشراف العام على جميع تلك الأنحاء[102].

وقد أدرك الصليبيون وقتئذ مدة القوة التي صارت عليها الدولة الإسلامية، وأن مفاتيح بيت المقدس توجد في القاهرة، وأن مصر هي مركز المقاومة الحقيقية في العالم الإسلامي ضد الحركة الصليبية. ولذلك جهزوا للخروج في حملة صليبية خامسة بقيادة ملك بيت المقدس حنا دي بريين John de Beriene (607 ـ 622هـ/ 1210 ـ 1225م)، واتفقوا على أن تتجه الحملة عن طريق البحر إلى مدينة دمياط باعتبارها أنسب المواقع للتقدم منها إلى القاهرة وتخريبها. وقد وصلت أساطيل الحملة قبالة مدينة دمياط في صفر 615هـ/ مايو 1218م، وبعد جهود مكثفة نجحوا في الاستيلاء عليها، ولكن المسلمين لم يستكينوا وإنما أخذوا يواصلون جهادهم ضد الصليبيين في مناوشات حربية عديدة أرهق الصليبيون على أثرها. وفي نفس الوقت أمر الملك الكامل محمد جنوده أن يحفروا طريقاً للماء من النيل، وكان النيل في حالة فيضان فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد أغرق معسكرهم فطلبوا الصلح والانسحاب بدون مقابل، وتم ذلك في رجب عام 618هـ/ سبتمبر 1221م، وعاد الصليبيون إلى بلادهم يجرون وراءهم أذيال الخيبة والفشل[103].

---

(102) لمزيد من التفصيلات عن خلافات أبناء البيت الأيوبي، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 468 وما بعدها، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 62 ـ 67. انظر: ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج 6، ص 116، ومن المصادر الأجنبية راجع:

Philip de Novare: Op. Cit., p. 26.

انظر: خارطة شكل (3).

(103) لمزيد من التفاصيل حول الحملة الصليبية الخامسة، انظر: =

وإذا كان أبناء أيوب قد أظهروا تماسكهم ووحدتهم في صد العدوان الصليبي على مصر، إلا أنهم ما لبثوا وأن عادوا إلى شقاقهم وخلافاتهم من جديد بعد انسحاب الصليبيين من دمياط، ففي عام 624هـ/ 1226م استعان المعظم عيسى صاحب دمشق بالخوارزمية[104] للوقوف ضد أخويه الكامل محمد والأشرف موسى صاحب الجزيرة.

فاضطر السلطان الكامل محمد لمواجهة ذلك الموقف بطلب المعونة من امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فريدريك الثاني Fredrick II، وتعهد له مقابل ذلك أن يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين الأيوبي بالساحل[105]، فرحب فريدريك بهذا العرض وقرر القيام بالحملة الصليبية

= Anonymous: Memorial de podestals de Riggio, CF., BIB. de Crois, Paris 1829, t. II, pp. 590-595; Phillip de Novore: Op. Cit., pp. 21-44, oliver of paderborn: Op. Cit., pp. 66-68. 131-132; Ernoul, Op. Cit., pp. 415-416, CF. also: King: Op. Cit., p. 90; Grousset: Op. Cit., t. III, pp. 211 FF.

انظر كذلك: ابن العديم: المصدر السابق، ج 3، ص 180، الصفدي: المصدر السابق، ج 3، لوحة 153، الحنبلي: المصدر السابق، ص 305، الحريري: الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين عن ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، دمشق، 1981، ص 90 ـ 91، محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، الإسكندرية، 1985، ص 90 وما بعدها.

(104) الخوارزمية: تنتمي إلى محمد بن أنوش تكين، وكان والده مملوكاً لأحد أمراء البيت السلجوقي، وقد رباه والده فأحسن تأديبه فارتفعت منزلته في الدولة حتى أسند إليه حكم مدينة خوارزم عام 489هـ/ 1095م، ولقب (خوارزم شاه) وخلفه في الحكم أبناؤه وأحفاده. وفي بداية القرن السابع الهجري (أوائل القرن الثالث عشر الميلادي) امتدت الدولة الخوارزمية إلى أقصى اتساعها في عهد السلطان علاء الدين خوارزم شاه وجلال الدين منكبرتي. وقد وجدوا في صراعات البيت الأيوبي في مصر والشام فرصة طيبة لتقوية نفوذهم في منطقة الشرق الأدنى على حساب أمراء هذا البيت. ولمعرفة المزيد عن الخوارزمية انظر: العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص 76، ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 323، أبو الفداء: المصدر السابق، ج 2، ص 219 ـ 220، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 164، أسامة زيد: الخوارزمية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر بني أيوب، مجلة كلية الآداب، العدد 30، 1982م، ص 264.

(105) العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 357، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 221 ـ 223، سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 2، ص 999.

السادسة عام 626هـ/ 1228م. وعندما وصل على رأس جيشه إلى عكا في ربيع الأول 626هـ/ إبريل 1228م، أصيب بخيبة أمل لما علم أن السلطان الكامل محمد لم يعد بحاجة إلى مساعدته بعد موت الملك المعظم عيسى وانتهاء الأزمة التي كانت قائمة بين مصر ودمشق وعودة الأمور إلى مجراها الطبيعي في منطقة الشرق الأدنى. فلم يجد الامبراطور فريدريك Fredric عندئذ سوى الاستعطاف والتذلل للسلطان الكامل محمد حتى وافق في النهاية على تسليمه بيت المقدس، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات ودخل الصليبيون بيت المقدس ثم عاد الامبراطور فريدريك Fredric إلى الغرب الأوروبي[106]. وبعد وفاة السلطان الكامل محمد خلفه في حكم مصر ابنه أبو بكر الذي حمل لقب العادل الصغير حتى صيف 637هـ/ 1240م ثم قبض عليه أتباعه وبايعوا الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد شهد عصره أحداثاً هامة مؤثرة في تطور العلاقات الإسلامية الصليبية، مما كان له أكبر الأثر في تحول ميزان القوى لصالح المسلمين. ويأتي في مقدمة هذه الأحداث عودة بيت المقدس عودة نهائية إلى المسلمين في صفر 642هـ/ يوليو 1244م، وقد ظلت هذه المدينة المقدسة تحت الحكم الإسلامي منذ هذا التاريخ حتى بدايات القرن العشرين. فضلاً عن ذلك تلقى الصليبيون على أيدي المسلمين ضربة شديدة راح ضحيتها الآلاف من الصليبيين ونعني بها هزيمتهم في معركة غزة أمام الجيوش الخوارزمية المتحالفة مع الجيش المصري في أكتوبر من نفس العام[107].

---

(106) الحنبلي: المصدر السابق، ص 312، ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 243، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 230، أسامة زيد: المرجع السابق، ص 250 ـ 254، انظر أيضاً:

Ernoul: Op. Cit., pp. 464, 565-566, Roger of wendover: Op. Cit., pp. 151-152; Stevenson: Op. Cit., p. 314.

(107) للوقوف على تفصيلات هذه الأحداث راجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 332 ـ 353، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ق 2، ص 323، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 222 ـ 225، أسامة زيد: المرجع السابق، ص 260 ـ 282، =

وما أن وصلت إلى أوروبا أخبار استعادة المسلمين بيت المقدس وهزيمة الأفرنج في موقعة غزة عام 642هـ/ 1244م حتى قامت البابوية بالدعوة لحملة صليبية جديدة ضد مصر، وخرج على رأسها القديس لويس عام 646هـ/ 1248م وهي المعروفة باسم الحملة الصليبية السابعة. وعندما علم الامبراطور فريدريك الثاني بأمر هذه الحملة أرسل إلى السلطان الصالح أيوب يخبره بأمرها وبتقدمها إلى مصر، فسار السلطان من دمشق وهو مريض ومعه الأمراء والعساكر استعداداً للدفاع عن البلاد[108]. وعندما وصل لويس التاسع على رأس حملته إلى دمياط في 20 صفر 647هـ/ 4 يونيو 1249م وجدها قوية التحصين ومن الصعب الاستيلاء عليها إلا بمجهود شاق وقوة كبيرة، فقرر النزول على البر الغربي للنيل المواجه لمدينة دمياط ثم سيطر عليه. وكان السلطان الصالح أيوب مريضاً ومقيماً في بلدة اسمها أشموم طناح بالقرب من دمياط، ولما سيطر الفرنج على الشاطىء الغربي أطلق قائد القوات المصرية الحمام الزاجل يخبر السلطان بما حدث وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً، فاعتقد أن السلطان قد مات فرحل بمن معه من الجنود إلى الشاطىء الشرقي الذي فيه مدينة دمياط ـ وبهذا خلا البر الغربي للفرنج ـ ثم سار جنوباً متجهاً إلى معسكر السلطان، ولكن الجند نسوا في عجلتهم أن يحطموا للجسر للموصل بين الشاطئين الشرقي والغربي، فانقض الفرنجة عليه واحتلوه وانفتح الطريق أمامهم إلى المدينة واستولوا عليها[109]. ولم يستسلم المسلمون لما حدث بل حاولوا قصارى جهدهم استعادة مدينة دمياط

= راجع أيضاً:

Mattew Paris, Op. Cit., pp. 483-500; Chronicle of Melrose, CF. Church Historian of English, London, 1857, 1. pp. 188-191.

انظر أيضاً روثلان: المصدر السابق، ص 127 ـ 134.

(108) المقريزي: الخطط، ج 1، ص 219.

(109) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 183، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 336، روثلان: المصدر السابق، ص 152 ـ 154، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر الإسكندرية 1969، ص 55 وما بعدها، راجع كذلك: جوانفيل: المصدر السابق، ص 69.

دون جدوى. وقد اشتد المرض بالسلطان وعجل بوفاته مما شجع الصليبيين على التقدم ناحية مدينة المنصورة، وهنالك دارت معركة حامية بين الصليبيين من جانب والمسلمين من جانب آخر انتهت بانتصار المسلمين ووقوع الملك الصليبي في الأسر مع مجموعة كبيرة من أمراء فرنسا[110].

وفي أثناء ذلك كان الملك المعظم تورانشاه يشق طريقه إلى القاهرة قادماً من كيفا عندما وصلت البشرى بنصر موقعه المنصورة، وارتفعت الروح المعنوية للمجاهدين بوصول السلطان الجديد. وعقدت معاهدة بين الجانب الصليبي والجانب الأيوبي مدتها عشر سنوات على أن يدفع لويس التاسع مبلغاً ضخماً فداء لنفسه، إضافة إلى الجلاء عن مدينة دمياط بعد يومين. ولم تلبث الأحداث أن توالت سراعاً ولقي الملك المعظم توران شاه مصرعه مقتولاً في محرم سنة 648هـ/ مايو 1250م قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية مع الصليبيين، وبذلك انطوت صفحة الدولة الأيوبية لتبدأ صفحة جديدة بقيام دولة المماليك في حكم مصر والشام، وأصبح مناطاً بها تكملة الجهاد ضد الصليبيين وطردهم نهائياً من البلاد[111].

وكان أول شيء حققه المماليك في بداية حكمهم هو إتمام معاهدة الصلح مع الصليبيين والإسراع في رحيل الفرنج عن دمياط وطوال مدة المعاهدة المبرمة مع الفرنج كان المماليك في مصر يثبتون نفوذهم في البلاد ويتخلصون من مشاكلهم الداخلية، وعندما تولى الظاهر بيبرس أمر البلاد وواصل المسلمون جهادهم ضد الصليبيين فنجحوا في استعادة كثير من البلاد

(110) لمزيد من التفصيلات حول معركة المنصورة، روثلان: المصدر السابق، ص 168 ـ 190، جوانفيل: المصدر السابق، ص 107 ـ 114، ابن واصل: المصدر السابق، (مخطوط لم يحقق)، ج 2، لوحة 369 ـ 370، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ق 2، ص 254 ـ 256.

(111) رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 467 ـ 470. انظر أيضاً:

Grousset: Op. Cit., t. II, p. 484.

مثل: صفد، الرملة، تبنين، يافا، أرسوف، شقيف أرنون. ثم توج الظاهر بيبرس أعماله باستعادة أنطاكية عام 666هـ/ 1266[112]م.

وعندما تولى السلطان المنصور قلاوون حكم البلاد عام 678 ـ 689هـ/ عقد هدنة مع الصليبيين في محرم 680هـ/ 1281م وتقرر بموجبها أن يكون للفرنج مناصفة الربض وبانياس على أن يردوا كل ما عندهم من أسرى المسلمين.

كما عقد أيضاً هدنة أخرى مع بوهمند السابع أمير طرابلس[113] ولكنه اضطر فيما بعد إلى خرق هذه الهدنة، التي سعى إليها بنفسه، استولى على حصن المرقب سنة 686هـ/ 1287م ثم على اللاذقية وكانت آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية[114].

---

(112) المقريزي: المصدر السابق، ج 2، ص 568، العيني: المصدر السابق، ج 2، ص 20، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 142.

صفد: مدينة في جبال مطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان وهي حصن متين وهي تقع بين ميناء عكا غرباً وغور الأردن شرقاً بالقرب من الحدود اللبنانية الحالية. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 412، أحمد عطية الله: المرجع السابق، ج 4، ص 283.

تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلدة بانياس بين دمشق وصور، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 14.

شقيف أرنون: الشقيف كالكهف وأرنون اسم رجل إما رومي أو إفرنجي، وهو قلعة حصينة جداً في كهف قرب بانياس، وتقع في جنوب لبنان فوق جرف جبلي، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 356، مولر: المرجع السابق، ص 80.

أرسوف: مدينة أصغر من يافا حصينة عامرة، وقال ياقوت الحموي مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا بها خلق من المرابطين، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 192.

(113) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، ج 9، لوحة 165، 288، النويري: المصدر السابق، ج 29، لوحة 270، مخطوط. انظر أيضاً:

King: Op. Cit., p. 282.

(114) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 210 ـ 211.

وفي العام التالي نقض الصليبيون بطرابلس الهدنة مع المسلمين واعتدوا على بعض تجارهم، فتجهز السلطان قلاوون لأخذ طرابلس، وخرج بقواته وعتاده في محرم 688هـ/ فبراير 1289م لحصارها، ونصب عليها المجانيق وضايقها مضايقة شديدة إلى أن ملكها بالسيف[115]، ثم واصل المسلمون جهودهم في استعادة بقية مدن الشام حتى لم يعد للصليبيين في بلاد الشام سوى عكا، صور، صيدا وعثليت[116]. وشرع السلطان قلاوون بعد ذلك في تجهيز حملة كبيرة بقصد الاستيلاء على عكا، ولكن اشتد عليه المرض ومات في خيمته في ذي القعدة سنة 689هـ/ 1290م[117]. وخلفه ابنه الأشرف خليل (689 ـ 693هـ/ 1290 ـ 1293م) وصمم على السير على نهج أبيه.

ولما علم الصليبيون في عكا بنية السلطان الجديد أرادوا أن يصرفوه عن عزمه فأرسلوا له سفارة من أعيان عكا إلى القاهرة[118] إلا أنه لم يلتفت إليهم وشرع في التجهيز للمعركة وأعلن أنه لا بد من المسير إلى عكا ونزالها والجد في قتالها متمماً ما عزم عليه والده من أخذها واستئصالها. وتم له ذلك في جمادى الأولى عام 690هـ/ مايو 1291م[119].

وقد أمر السلطان عندئذ أن تخرب عكا حتى لا يستفيد منها الصليبيون

---

(115) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 746، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 321.

(116) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 748، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 687. انظر أيضاً:

Grousset: Op. Cit., t. II, p. 745, Stevenson: Op. Cit., pp. 349-350.

(117) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 178، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 4، ص 23 ـ 24، النويري: المصدر السابق، ج 29، لوحة 48.

(118) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 762، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 694 ـ 695.

(119) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، ج 9، لوحة 168، ابن تغرى بردى: المصدر السابق: ج 8، ص 5.

فيما بعد[120]، ثم واصل المسلمون جهادهم ضد البقية الباقية من الحصون والمدن الصليبية، فاستولوا على صيدا وتورون في أواخر رجب 690هـ/ أغسطس 1291م[121]. أما بالنسبة لصور وعثليت فقد استولى عليهما المسلمون في الشهر التالي من العام نفسه وبذلك تطهرت البلاد الشامية من الفرنج وانطوت صفحة من صفحات الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

(120) أبو الفدا: المصدر السابَق، ج 4، ص 25، ابن كثير: المصدر السابق: ج 13، ص 340، ابن الفرات: المصدر السابق، ج 8، ص 113.

(121) أبو الفدا: المصدر السابق، ج 4، ص 25، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 8، ص 8 ـ 10. انظر: خارطة شكل (4).